

الفصل التاسع عشر

العباسيون

٢٣٢ — ٤٥٤ هـ ٨٤٧ — ١٠٦٣ م

من عهد المتوكل إلى القائم

المتوكل أو نيرون العرب — انحلال الإمبراطورية العربية — المنتصر —
المستعين — المعتز — ثورة الزنوج — المعتضد — الدولة الفاطمية —
الفرامطة — المكتفي — استرداد مصر — السامانيون — المقتدر —
القاهر — الرازي — المتقي — آل بويه — رجال البلاط —
المستكفي — الفزنيون — المطيع — الطائع — القادر — القائم —
السلجوقيون — طغرل بك

أبو الفضل جعفر
المتوكل على الله
٢٣٢-٢٤٧ هـ
٨٤٧-٨٦١ م

ولما توفي «الوائق» أراد معظم كبار الدولة ومن بينهم القاضي الأكبر والوزير أن يبايعوا ابنه ، غير أن «وصيفاً» القائد التركي اعترض على ذلك بقوله إن القلنسوة والدراعة والصولجان لا يقوى على حملها جسم الطفل الصغير ، ولهذا استقر رأيهم على مبايعة جعفر أخى الوائق الملقب «بالتوكل على الله» ، وإن كان يستحق أن يسمى « بنيرون العرب » . وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة ، وفى عهده بدأ انحلال الإمبراطورية العربية وتسرب الفساد فى جسم الدولة ، بينما كان هو غارقاً فى لهوه مستسلماً لشهواته عاكفاً على معاقرة الحر . ولكنه كان برغم ذلك من العاملين على إعادة المذهب التقليدى ، فأصدر أمره بترك المباحثات والمناظرات ، وأمر الناس بالتمسك بالتقليد ؛ كما أقصى أحرار الفكر عن وظائف الدولة ، وعطل المحاضرات التى كانت تلقى فى العلم والفلسفة . ولا مشاحة أن غلواءه هذا أدى به إلى أن يزج القاضي «أبا دؤاد» وولده اللذين كانا من

أشهر رجال المعتزلة — في السجن ويصادر أملا كهما . ويقال إنه لم يكتف باضطهاد أحرار الفكر فحسب ، بل أوغل أيضا في اضطهاد الذميين الذين قاسوا في خلال حكمه أشد ضروب الجور والإيذاء ، إذ أقصاهم عن وظائف الدولة وحرهم جميع الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في عهد أسلافه . وبلغ به كرهه لعل بن أبي طالب وآل بيته أن هدم قبر الحسين بكر بلاء وأمر بزعه وسقيه ، كما منع الناس من زيارته مهدداً كل من يخالف أمره بأقصى أنواع العقوبات ، كذلك صادر أرض « فذك » وأمر بقتل ابن الزيات^(١) وزير الوائق بحجة أنه لم يحترمه الاحترام الكافي قبل أن يعتلي كرسى الخلافة .

وقد انتهز الروم فرصة انتشار هذه الفوضى في أنحاء الإمبراطورية واستأنفوا حروبهم ، فأغاروا على دمياط من أعمال مصر وفتكوا بأهلها وحرقوا دورهم ، ثم غزوا كليشيا وأسروا منها ٢٠.٠٠٠ وذبحوا ١٢.٠٠٠ بعد أن مثلوا بهم شر تمثيل بأمر الإمبراطورة « ثيودورة » ، ولم ينج من هذا الاعتداء المروع إلا من اعتنق المسيحية .

وفاة المتوكل

ولما بلغت تصرفات « المتوكل » في أواخر أيامه حداً لا يطاق تأمر عليه القواد الأتراك ، ويقال إن ابنه « المنتصر » كان يعلم بسر المؤامرة التي دبرت لقتله ، والمعروف أنه لم يكن راضياً عن تصرفات أبيه الجائرة ، وفي ذات ليلة بينما كان « نيرون العرب » مملاً فاقد الحس دخل عليه المتآمرون وفتكوا به .

أبو جعفر أحمد
المنتصر بالله
٢٤٧-٢٤٨ هـ
٨٦١-٨٦٢ م

ولما قتل المتوكل بوبع « المنتصر بالله » ، وكان ورعاً عادلاً سمحاً كريماً عفيفاً أميناً يحرص كل الحرص على توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب ،

(١) كان ابن الزيات قاسى القاب ، ولكن أبا دؤاد كان بلطف من حدة في عهد الوائق . ويقال إن ابن الزيات الآنف الذكر كان قد اخترع آلة لتعذيب المحرمين والمفضوب عليهم ، فأمر المتوكل بإدخاله فيها وهي تشبه الآلة التي اخترعها السير « سكيفتكنون » في القرن الخامس عشر : « وهذه الآلة عبارة عن تنور من الحديد رؤوس مساهمة إلى داخل قائمة . رؤوس المسال » .

فشيّد من جديد قبري « علي » و « الحسين » ، وأطلق أوقاف « آل البيت » التي كان « المتوكل » قد صادرها ؛ كما منع التعرض للذميّين ، ولكنه توفي لسوء الطالع بعد حكم لم تطل مدته غير ستة أشهر^(١) . فاجتمع القواد الأتراك الذين أصبحوا وحدهم المتحكمين في مصائر الخلافة ، وبايعوا خفيداً من أحفاد المعتصم ولقبوه « بالمستعين بالله » ؛ ولكنهم مع ذلك جردوه من النفوذ والسلطان . ويقول لنا المؤرخون إن الاضطرابات التي عمت البلاد بعد موت « المنتصر » شجعت أسراء الولايات على الاستقلال بولاياتهم تدريجياً ، فأصبحوا أشبه بأصحاب الإقطاعيات منهم بالعمال الذين يأتمرون بأوامر الخليفة ؛ وهكذا تدهورت سلطة الخلافة ولم تعد تحتفظ لنفسها بغير الاسم فحسب^(٢) .

توفي « عبد الله بن طاهر » في خلافة المعتصم فرأى ابنه طاهر أن من حقه الشرعي أن يتولى منصب أبيه ، وكانت إدارته لا تقل عدلاً وإنصافاً عن إدارة سلفه ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه الأسرة أسست في « نيسابور » (حاضرة خراسان) بلاطاً يضارع بلاط الملوك روعة ونخامة ، ولما توفي طاهر سنة ٨٦٢ م خلفه ابنه « محمد » وظل متربّعاً في دست الحكم حتى سنة ٨٧٣ م . وبعد حكم هذه الأسرة إيذاناً بانفصال الإمارات عن الخلافة ، إذ أن استقلالها شجع الأمراء الآخرين على إعلان استقلالهم ، وعلى هذا أفلت المشرق تدريجياً من أيدي الخلافة العباسية .

كذلك حدث في تلك الأثناء أن ضاق « المستعين » ذرعاً بالجيش التركي ففر منه إلى بغداد حيث كان يتوقع مؤازرة الجيش العربي والفارسي . وما إن ينس زعماء الأتراك من عودته حتى بايعوا « المعتز بالله » ثاني أولاد المتوكل

(١) كان المنتصر أول خليفة عباسي بني ضرباً فوق قبره .

(٢) يشبه تاريخ الأسرات الحاكمة التي قامت في الإمبراطورية العربية في المدة الواضحة بين وفاة الواثق وبين سنة ١٠٥٥ الأسرات القوية التي ظهرت في فرنسا واستولت على إمارات النورمندي والبورغندي .

أبو العباس أحمد
المستعين بالله

الطاهريون

٢٣٢-٨٤٥٤

فرار المستعين
بأهله إلى بغداد

بالخلافة، وراحوا يضيقون الحصار على بغداد حتى أذعن «المستمعين» بالتسليم ورضى بالتنازل عن الخلافة على شرط أن يضمنوا له العيش باطمئنان في المدينة المنورة، غير أن أحد رجال الخليفة المعتز اغتاله في واسط وهو في طريقه إلى الحجاز .

ومنذ ذلك الحين طفق القواد الأتراك يتنازعون على السلطة والنفوذ فيما بينهم ، حتى أدى بهم التنافس إلى التآمر على قتل قائدین شهيرين طالما شاهدناهما يلعبان على مسرح الحوادث في ذلك العهد ، وهما «وصيف» و «بغا» ، فولى الوزارة بعدهما المدعو «بايكباك» الذي استطاع أن يفوز من الخليفة بولاية مصر وينيب عنه «أحمد بن طولون»^(١) المشهور ، الذي ما كاد يصله خبر مقتل سيده حتى استقل بحكمها ؛ ولقد برهن هذا الرجل على أنه إداري حازم وجندي شجاع . وفي سنة ٨٦٨ م توفي الإمام «علي النقي» وخلفه ابنه الحسن الملقب بالعسكري^(٢) . وفي سنة ٢٥٥ هـ أى بعد مرور ثلاث سنوات على خلافة «المعتز» اشتد شغب الجنود ، وألحوا عليه في طلب مرتباتهم ، ولما أعرب لهم عن فراغ الخزينة أخرجوه عنوة من القصر ، وراحوا ينزلون به أروع ضروب الإهانات حتى اضطروه إلى التنازل عن الخلافة ، ثم اغتالوه بعد أن ألقوه مدة في السجن ، وهكذا قدر لأحفاد «المنصور» و «الرشيد» أن ينحدروا إلى هذا المصير من الضعف والاستكانة .

جاءى الثانية
٢٦٤ هـ
(حزيران)
٨٦٨ م

ولما تنازل «المعتز» عن الخلافة بايع القواد الأتراك ابن الواثق ولقبوه «بالمهتدى بالله» ، وكان رجلاً قوى الأخلاق فاضلاً عادلاً محباً للشعب . ولو أنه جاء في عصر غير هذا العصر لبرهن على مقدرة ممتازة وكفاية منقطعة النظير .

أبو عبد الله
محمد المهتدى بالله
٢٦ رجب
٢٥٥ هـ

(١) جاء في وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٩٦ : «إن أحمد بن طولون كان قد ولى مصر ثم استولى على دمشق والشام أجمع وأنطاكية والنفور . وكان أحمد عادلاً جواداً شجاعاً متواضعاً ، حسن السيرة ، صادق الفراسة ، مباشر الأمور بنفسه ، ويعمر البلاد ويتفقد أحوال الرعية ويجب أهل العلم . وكان له ألف دينار في كل شهر للصدقة ، وكان مع ذلك كله طائش السيف . وكان يحفظ القرآن الكريم ورزق حسن الصوت . » (المغرب)
(٢) لقب بالعسكري لأنه ولد وتوفي في سامرا التي كانت تدعى العساكر .

والمعروف أنه أقصى الغنيين وأبعد الموسيقيين والقيان من القصر؛ كما حاول إظهار نفوذه وحكم البلاد بموجب الشرع ، غير أن وطأته ثقلت على الأتراك فتألبوا عليه وناروا في وجهه فصمد لهم في قوة قليلة من رجاله ، ودار بين الفريقين قتال شديد أبلى فيه الخليفة بلاءً حسناً ، غير أن أعوانه تفرقوا من حوله فقبض عليه الأتراك وساموه ضروب العذاب حتى اضطروه إلى التنازل عن الخلافة وأودعوه السجن حيث توفي بعد أمد قصير .

أبو العباس أحمد
المعتمد على الله
٨٢٥٦
(٢٨٧٠م)

وعلى أثر ذلك بويغ أكبر أبناء المتوكل بالخلافة ، وكان يعيش في تلك الآونة في سامرا ، واقتب « بالمعتمد على الله » وكان ضعيف الخلق ، متقلب الأهواء ، عاكفاً على اللذات ، في حين كان أخوه « أبو أحمد » الملقب « بالموفق » رجلاً حازماً ذا مقدرة عسكرية ممتازة ، وكان في الواقع هو الحاكم الفعلي للبلاد ، وظل محافظاً على نفوذه وسلطانه حتى وافته منيته قبيل وفاة أخيه « المعتمد » بقليل . وتقول لنا الرواية العربية : إن القواد الأتراك خفصوا في عهده وفي عهد خلفه قليلاً من غلوائهم عند ما آنسوا من « الموفق » قوة وصلابة من جهة ، ولربما لانتقال البلاط إلى بغداد من الجهة الأخرى ، حيث أصبح الخليفة يعتمد على الروح الوطنية . ويمكننا أن نقول إن دلائل النشاط والرفاهية أخذت في ذلك الحين تبدو على جسم الإمبراطورية برغم انفصال طبرستان سنة ٨٦٤ م ، حيث استطاع أحد أحفاد علي المسمى « بالحسن بن زيد » أن ينشر الدين الإسلامي بين أهلها وينادي بنفسه حاكماً عليها .

الصفارية

ولم يحل عام ٨٧٠ م حتى كان « يعقوب بن الليث الصفار » قد أسس مملكة « الصفارية » . وكان هذا المصاحي قد بدأ حياته كجندى بسيط ، وظل يواتيه الحظ حتى استولى على « سجستان » واستخلصها من الأمراء الطاهيرية ، ثم نشر سلطانه على بلاد فارس الحالية ؛ وفي سنة ٨٧٣ أقصى « محمداً » حفيد طاهر من خراسان كما اجتاحت طبرستان بعد مدة قصيرة وضمها إلى إمارته . ويظهر أن

النجاح الذى ناله فى المارك التى خاض غمارها حفره على الاستيلاء على العراق ؛
وهناك تقابل جيشه بجيش «الموفق» فى «واسط» ، ودارت بين الفريقين معركة
رائعة دارت فيها الدائرة على «يعقوب» ، فانسحب إلى إمارته مثقلاً بالهزيمة .
وفى السنة التالية بعد أن أعد عدته أراد الاستيلاء على عاصمة الخلافة ، غير أن
المنية عاجلته فى «جنديسابور» ، خلفه أخوه «عمرو بن الليث» وكان سياسياً لبقاً
فاستطاع أن يكتسب رضا «المعتمد» الذى أقره على إمارة أخيه وأرسل له
العقد والعهد^(١) التقليدين .

٨٧٩ م

ومما هو جدير بالذكر أن بلاد «ما وراء النهر» انفصلت عن الخلافة
فى ذلك الحين ، وأفضى أمرها إلى السامانيين الذين استقلوا بها برئاسة زعيمهم
«إسماعيل السامانى» ، وكان فى الأصل قائداً للقوافل يتماطى تجارة الجمال .
ويعزى ارتفاع شأن هاته الأسرة إلى «الأمون» الذى ولى «أحمد السامانى»
فرغانة فى سنة ٨١٩ م ، ثم خلفه «أحمد بن ناصر» ؛ ولما توفى سنة ٨٩٢ أفضى
الأمر من بعده إلى أخيه إسماعيل وكان رجلاً قوى الأخلاق ، على جانب عظيم
من الكفاية الإدارية والحنكة السياسية ، حتى إنه لم يكن ليترك صغيرة ولا
كبيرة من أمور الدولة إلا ويطلع عليها . كذلك استطاع أن يزيج إلى ما وراء
«جاكارت» قبائل التركمان التى اعتادت أن تشن الغارة من حين لآخر على
ما وراء النهر ؛ كما اكتسب محبة الرعية بفضل حكمته وعدالته . وهكذا أسس
دولته على دعائم قوية ، وجعل الحكم وراثياً فى أسرته كما فعل «عمرو بن الليث»
مقابل جزية سنوية يدفعها لها للخليفة . وقد استقل «أحمد بن طولون» بملك مصر
والشام وتوفى سنة ٨٨٤ م خلفه ابنه «خارويه» الذى نقل عاصمة ملكه إلى دمشق .

السامانيون

— ٨٤٧
١٠٦٣ م

الطولونيون

(١) جاء فى صبح الأعشى للقلقشندي : «أنه إذا كان الذى يوليه الخليفة من ملوك
النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة ، جهز له التشريف من بغداد صحة رسول وهو : جبة أطلس
أسود بطراز مذهب ، وطوق من ذهب يحمل فى عنقه ، وسواران من ذهب يحملان فى يديه ،
وسيف قرابه ملبس بالذهب ، وفرس يركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض
اسم الخليفة ينشر على رأسه . »
(العرب)

وفي هذه المرحلة تبرز لنا حقيقة لا يمكن إغفالها ؛ وهي أن تأسيس تلك الأسر المستقلة وإن أضعفت شأن الإمبراطورية العربية قد أفادت أهل تلك الإمارات فوائد جمة ؛ ذلك أن حكامها ناصرُوا الحركة الأدبية وتعهّدوا يبرم وعظفهم كما شجّموا التجارة والصناعة أيّما تشجيع .

وفي تلك الأثناء استفحلت ثورة الزوج التي كانت قد انتشرت في كلدة في عهد المعتز ، وبلغت جانباً عظيماً من الخطورة بزعامة رجل فارسي أباح لأتباعه أخرى أنواع الخلاعات ، وسمى « بالخبيث صاحب الزنج » ، فتدفق عليه العبيد من كل حذب وصوب وانضوا تحت لوائه ، فلما اشتدّ ساعده وقوى بأسه أعلن سلطانه على كلدة والأهواز ، وظل يحرز النصر تلو النصر على جيوش الخليفة طوال عدة سنين ، غير أن « الموفق » استطاع أخيراً أن يهزمه شر هزيمة ويفتك به سنة ٨٨٢ .

وفي تلك السنة أصبحت الدولة الخلافية مكونة من جزيرة العرب والجزيرة وبابل وكلدة (العراق العربي) وعراق العجم وأذربيجان وأرمينيا والولايات المطلة على المحيط الهندي ، وتدلنا تلك الحدود على أن الإمبراطورية العربية كانت لا تزال مترامية الأطراف جديرة بالازدهار والتوسع . بيد أن الدولة البيزنطية انتهزت فرصة نشوب هاته الفتن الداخلية وأخذت تغير على البلاد الإسلامية حتى كادت تكتسح في بادئ الأمر كل ما تصادفه أمامها ؛ غير أن أحمد بن طولون حينما استولى على الشام هب لقتالهم كما اشتبك عامله معهم في « طورسوس » في عدة معارك هزمهم فيها شر هزيمة وأجلاهم إلى ما وراء الحدود .

(٢٣٢) —
(٨٤٥٤ هـ)

وفي سنة ٢٦٠ هـ توفي الإمام « حسن العسكري » في عهد « المعتد » وانتقلت الإمامة بوفاته إلى ابنه محمد الملقب « بالمهدي » آخر أئمة الشيعة . ومما لا شك فيه أن قصة هؤلاء الأئمة من « آل البيت » تثير الشجون وتحرك

آخر أئمة الشيعة
الاثني عشرية
سنة ٨٧٤ هـ

العواطف ، ومن أمثلة تلك المآسى أن « أبا الحسن »^(١) كان قد نفى بأمر « المتوكل » من المدينة إلى سامرا حيث وافته منيته وظل ابنه الحسن سجيناً . ويقال إن الباعث الحقيقي على سجنه هو الحسد الذى كان يضطرم فى قلوب أخلاف المتوكل ، وكان ابنه الطفل^(٢) الذى لم يكن قد ناهز بعد سن الخامسة يذوب حزناً وأسى على فراق أبيه ، فدخل الطفل ذات يوم سرداباً يبحث عنه ، ولكنه لم يعد ثانية ، فاستحالت شجون تلك المصيبة إلى أمل الانتظار ، وأخذ أتباع « الحسن » يعللون النفس بعودة الطفل كى ينقذ العالم الملىء بالشرور والآثام ويظهره من أدران الخطيئة والظلم . ويقول ابن خلدون فى مقدمته التى وضعها فى القرن الرابع عشر ما يلى : « وهم الآن ينتظرونه ويسمون المنتظر لذلك ، ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية ؛ وهم على ذلك لهذا المهد ؛ وبعض هؤلاء « الواقفية » يقول إن الإمام الذى فات يرجع إلى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بقتيل بنى إسرائيل ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت على طريق المعجزة » .

ولما توفى الموفق سنة ٢٧٨ هـ ببيع من بعده أخوه ثم خلفه ابن أخيه « أحمد ابن الموفق » ولقب « بالمعتضد بالله » ، وفى خلال تلك المدة لم يطرأ أى انفصال على جسم الدولة ؛ بل تضافرت جميع الفرص على تقوية نفوذ هذين الخليفتين فاستردا عدة ولايات كانت قد انفصلت عن الدولة الخلافية من قبل . ولقب المعتضد « بالسفاح الثانى » إذ من المعتقد أنه أعاد إلى البيت العباسى — الذى كان قد تنطرق إليه الوهن والضعف — هيئته السابقة . ويصفه المؤرخون : بأنه كان شجاعاً نشيطاً وإدارياً حازماً وجندياً ممتازاً ؛ ولكنه كان بجانب ذلك

— ٨٤٧

١٠٦٣

أبو العباس أحمد
المعتضد بالله
(٨٩٤م)

صفات المعتضد
بالله

(١) على الهادى . (المغرب)

(٢) محمد العسكرى .

قليل الرحمة كسلفه «السفاح الأول»، فنشط لقمع الاضطرابات حتى أربب الناس واستطاع كبح جماحهم وأطفأ نار الفتن، وكان فوق ذلك موقفاً في حروبه مع الدولة البيزنطية، إذ تمكن من استرداد عدة مدن بالسلاح والاستيلاء على عدد آخر دون مقاومة؛ وقع بشدة ثورة الأمير حمدان أمير الموصل الذي حاول الاستقلال بالحكم، كما أجلى الأكراد عن أرض الجزيرة؛ غير أن أعظم عمل اشتهر به هو استرداد مصر سلمياً وضمها إلى الخلافة، وذلك أن خاروية بن أحمد بن طولون كان قد عرض على الخليفة من تلقاء نفسه جزية سنوية قدرها ٤٥٠ ألف دينار (٢٨٢م) إن هو أقره على إمارة مصر وجعلها وراثية في أسرته، ولا شك أن العلاقة بين مصر ودار الخلافة قد توثقت روابطها بزواج المعتض بالله من ابنة خارويه «قطر الندى». وكان المعتض رجلاً حازماً صارماً. ويقال إنه أدخل عدة إصلاحات عظيمة الشأن منها أنه أقصى من العاصمة جميع القتلة واللصوص الذين كانوا يجلسون على قارعة الطريق في رابعة النهار يقصون القصص ويتنبأون بالمستقبل والحظ، ولكنهم كانوا متى أرخى الليل سدوله يسطون على الدور والحوانيت. أما الإصلاح الذي أكسبه محبة الشعب فهو القانون الخاص بالمواريث، إذ كان من عادة العرب في زمن الجاهلية أن يحرّموا ذوى الأرحام من الميراث، وقد أخذ أهل السنة بهذه القاعدة، حتى جاء «المعتض» فأمر بالقائها هي وديوان الميراث وإعادة البقية من أسهم المواريث إلى مستحقيها.

وكان المسلمون وقتئذ يحتفلون بعيد رأس السنة الشمسية جرياً على عادة الفرس القدماء؛ وكان الخليفة يستقبل في ذلك العيد المسمى بالنيروز^(١)

(١) جاء في صبح الأعشى للقلقشندي ج ٢ ص ٤١٠ و ٤١١ : « إن أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان في الإسلام هو الحاج بن يوسف الثقفى، ثم رفع ذلك » عمر بن عبد العزيز « واستمر المنع فيه إلى أن فتح الهدية فيه » أحمد بن يوسف الكاتب « فإنه أهدى فيه للمأمون سبط ذهب فيه قطعة عود هندي وكتب معه : هذا يوم جرت فيه العادة بإتحاف العيد السادة . » (العرب)

الأشراف ويقبل منهم الهدايا ، كما كان الشعب يتبادل الزيارات ، ويتهاذى بالحلوى و سلال البيض الملون بالأصباغ ، ويضيء المشاعل في الليل ، ويرش الأمواه الملونة أو المعطرة . ولما كانت تلك العادة تؤدي في معظم الأحيان إلى أسوأ النتائج فضلا عن الأخطار الناجمة عن إشعال النيران ، فقد أبطل « المعتضد بالله » هاتين العادتين ؛ كما منع بيع الكتب الفلسفية في الأسواق ، واستبدل رأس السنة من شهر آزار إلى حزيران ولهذا سمي « بالنيروز المعتضدى » .

وفي تلك الأثناء تأسست الدولة الفاطمية في أفريقيا وظهر القرامطة
الاشتراكيون الذين غشوا جزيرة العرب وسوريا والعراق ونشروا فيها الرعب
وجلبوا على الأمة الإسلامية الكوارث والحراب ؛ وكان أول ظهورهم في سواد
السكوة ثم انتشروا في البحرين معقل أصحاب المبادئ الثورية والآراء الهدامة
في العالم الإسلامي ؛ وهناك بزعامه « أبى سعيد الجنابي » قوى أمرهم واستطاعوا
سنة ٢٨٧ هـ غزو كلدة ، فأرسل إليهم المعتضد جيشاً قوياً هزمهم شر هزيمة .
وبعد هذه المعركة بسنتين بلغوا الشام وأعملوا فيها معاول النهب والتخريب .
وفي سنة ٣٠١ هـ اغتيل أبو سعيد فولى الزعامه من بعده ابنه « أبو طاهر » الذى
استولى على البصرة وعمل في البلاد التى فتحها السلاح والنار ، وظل هو وأتباعه
يرتكبون أروع ضروب الفتك ويلحقون بجيش الخليفة الهزائم المتوالية ، حتى
بلغت بهم الجرأة إلى الانقضاء فجأة سنة ٣١٧ هـ (فى حكم المقتدر) على مكة
فى يوم^(١) من أهم أيام الحج دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام ، وقتلوا الحجاج
وقتلوا الحجر الأسود وحملوه معهم ، وظلوا يعيشون فى البلاد نهبا وقتلا ويرتكبون
أقصى ضروب الجور والتعسف ، حتى هب المسلمون ووحدها صفوفهم للقضاء على
أعداء الإنسانية واستئصال شأفتهم ؛ فنشبت حروب دموية هائلة بين الفريقين
استعملت فيها أروع ضروب القسوة ، واستمرت خمس عشرة سنة حتى انتهى

القرامطة
٢٧٨ هـ (٨٩١)
— ٨٩٢ م

أبو سعيد الجنابي
سنة ٩٠٠ م

٩٠٣-٩٠٤ م

الأمر بالقضاء على هذه الفئة الباغية ؛ غير أن نتائج هذه الحروب لم تنطمس معالمها ٢٣٢-٤٥٤ هـ قط ، إذ استحوالت جزيرة العرب وقسم من بلاد الشام وكلدلة إلى أرض بلقع . ويقال إنه ما كادت شوكة الخليفة تقوى وتشتد حتى أضعفتها هذه الفتن ، وفقت في عضدها فاجترأت الدولة البيزنطية — عدوة الإمبراطورية العربية — على غزرو الحدود خلال تلك الفوضى وهي آمنة مطمئنة .

وفي سنة ٢٩٩ هـ توفي «المعتض بالله» وبويع من بعده بالخلافة ابنه أبو محمد «علي» وألقب «بالمكتفي بالله» ، وقد برهن على أنه حاكم عادل كريم الخلق سديد الرأي ، وكان في «الركة» وقت أن توفي أبوه فأخذله «الوزير القاسم بن عبيد الله البيعة» ، وفي الحال عاد «المكتفي» إلى بغداد على ظهر سفينة أقلمت به وسط تهليل الشعب وهتافه ، وقد أمر حين وصوله إلى العاصمة بهدم السجون الأرضية التي شيدت في عهد أبيه ثم بنى مكانها مساجد ، كارد الأرض والبساتين التي كان سلفه قد اغتصبها ليشيد عليها قصره ؛ وبهذه الأعمال المجيدة وبأمثالها اكتسب «المكتفي» محبة الناس الذين ملأ أبوه قلوبهم رعباً وخوفاً .

وبالرغم من المصائب والويلات التي أنزلها القرامطة بالعراق والحجاز وجنوبي الشام فقد استطاع «المكتفي» أن يضم مصر إلى الخلافة ويضعها تحت سلطانه المباشر ، ويصد جيوش الروم بعد أن ألحق بهم أفدح الخسائر ، كما استولى عنوة على أنطاكية إحدى المدن الخطيرة ؛ ولكنه توفي لسوء الطالع بعد حكم لم تطل مدته أكثر من خمس سنوات . فأفضى الأمر من بعده إلى أخيه جعفر وكان إذ ذاك لم يتجاوز الثالثة عشرة ولقب «بالمقتدر بالله» ، وقد بقي في كرمى الخلافة ٢٥ سنة ، ويعزى الاحتفاظ بهيبة الخلافة إبان عهده إلى مقدرة وزرائه (١) وكفائتهم ، ولكن الدولة لم تلبث أن تقلصت أطرافها بسبب طيشه وغروره . وفي تلك الأثناء استولى الخليفة الفاطمي «عبيد الله المهدي» على أفريقيا

(١) أمثال ابن الفرات وغيره .

مباينة أبي محمد
على المكتفي بالله
٢٢ ربيع الثاني
٢٩٩ هـ
٥ نيسان ٩٠٢ هـ

٨٤٧ هـ —
١٠٦٣ هـ

المقتدر بالله
١٢ ذو القعدة
٢٩٥ هـ
١٣ آب ٩٠٧ هـ

وطرد منها آخر الأغلبة المدعو زيادة الله بن الأغلب الذى رحل إلى مصر ومنها إلى العراق ؛ وكان الديلم الذين يسكنون أقاصى شمالى ميديا القديمة قد اعتنقوا الإسلام بفضل أحد العلويين المسمى الحسن أو « الأطروش » الذى استولى على طبرستان وكيلان وانتزعهما من « السامانيين » . وفى عام ٣٠٥ هجرية وصل وفد^(١) من إمبراطور الروم فاستقبل استقبالاً رائعاً . ومن مآثر « المقتدر » أنه شيد المستشفى المسمى بالمقتدرية ورتب له سبعة آلاف دينار سنوياً . وفى أواخر عهده كانت أمور الدولة قد صارت إلى أيدي أمه المشهورة بحسن خصالها وواسع حيلتها ، وكانت تصدر المراسيم والأوامر باسمها وتجاس فى أيام الجمعة للخطايم يحيط بها رهط من القضاة والأعيان . ويقال إن أصحاب المذهب الحنبلى عظم نفوذهم وعلت كلمتهم فى تلك الأيام ، فأدى تعصبهم إلى نشوب اضطرابات عديدة فى بغداد^(٢) وكانوا قد أحسوا بضعف الحكومة ووهنها ، فنصبوا أنفسهم مراقبين على الشعب وشرعوا يعتدون على حرمة المنازل ، وكثيراً ما كانوا يستدلون على الكتب التى لم تكن توافق أهواءهم ؛ وكان مقتهم الخاص موجهاً إلى الكتب الفلسفية والعلمية التى كانوا ينتزعونها من المسكاتب ويحرقونها علانية .

٨٣٠٥

— ٢٣٢ —
٨٤٥٤

وفى عام ٣٢٠ قتل المقتدر فى أثناء المعركة التى دارت بين جنوده وأحد الأشراف الثائرين . فبويع بعده ابن المعتز المسمى بأبى منصور محمد ولقب « بالقاهر بالله » وكان قاسياً فاسد الأخلاق سيئ النية ، حتى إن الذين أجلسوه على العرش

٣١ تشرين
الأول ٩٣٢ م
أبو منصور محمد
القاهر بالله
٦ جادى الأول
٨٣٢٢ نيسان
٩٣٤ م

(١) جاء فى صبح الأعشى للقلقشندي : « إنه لما وصلت رسل ملك الروم إلى بغداد فى سنة خمس وثلثائة فى خلافة المقتدر رتب من العسكر فى دار الخلافة مائة وستون ألفاً ، مابين راكب وراجل ، ووقف بين يدي الخليفة سبعمائة حاجب وسبعة آلاف خادم خصي : أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود ، ووقف الفلجان الحجرية الذين هم بمثابة ممالك الطبايق الآن بالباب بتمام الزينة والناطق الحلاة ، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة وغرائب الزينة ، وغشيت جدرانها بالسور ، وفرشت أرضها بالبسط . » (المغرب)

(٢) وقد بلغ من تعصبهم أن حالوا دون دفن الطبرى المؤرخ المشهور لأنه لم يشد بذكر أحمد بن حنبل فى تاريخه ، وقد تدخل أصدقاؤه ودفنوه سرا .

سخطوا عليه وسلموا عينيه ثم خلعوه ، وفي خلافته استقل « محمد الأخشيدي التركي »^(١) بمصر .

وعندئذ بايع القواد الأتراك « أبا العباس محمد » بن « المعتز » ولقب بالراضى بالله ؛ وبمبايعته اضمحلت عظمة الخلافة ونفامتها وأفل نجمها وقضى على نفوذها الذى كانت تتمتع به إلى ذلك الحين ، إذ لم يمض طويل وقت على مبايعته حتى استولى محمد بن رائق عامل واسط والبصرة على السلطة العليا ، فلقبه الراضى الذى لم يكن له حول ولا طول بلقب « أمير الأمراء » ، ولم يعد للخليفة سلطان إلا على بغداد وضواحيها ، وذلك أن الأمراء استقلوا بإماراتهم . ومع أن ملوك الأندلس الأمويين لم يكونوا قد اتخذوا لأنفسهم بعد سمة الخلافة إلا أن تدهور السلطة العباسية وانهايار مجدها حدا بمعد الرحمن الثالث إلى أن يتلقب بالخلافة ؛ وعند ما اشتدت شوكة « بجكم » القائد التركى عزل محمد بن رائق واستأثر بلقب إمارة الأمراء .

— ٨٤٧

١٠٦٣

أبو إسحق
إبراهيم التتقى باقة
٩٤٠ هـ ٣٢٩ م

وفي سنة ٣٢٩ توفى الراضى بالله خلفه أبو إسحق إبراهيم بن المعتمد ولقب « بالمتقى بالله » ، ولم يكن فى الواقع إلا أداة صماء فى يد سكرتيه « بجكم » الذى اغتيل بعد مدة قصيرة فولى الحكم من بعده تركى^(٢) آخر ، غير أن ابن رائق هزمه ، وعندئذ خلع « المتقى » عليه الخلع التقليدي ولقبه « بأمير الأمراء » ، ولكن سرعان ما استولى زعيم تركى ثالث اسمه (البريدى) على بغداد فقر ابن رائق يصحبه الخليفة إلى الموصل ، حيث كان حفيدا الأمير حمدان أمير الموصل وتكريت يصدان غارات الروم بقدر ما تسمح به مواردهما الخاصة ، فاجتالا ابن رائق لكى يخلوها الجو ، وما هى إلا برهة حتى لقبهما الخليفة بناصر الدولة ، وسيف الدولة ، وعاد معهما إلى بغداد حيث أجلساه على عرشه ثانية . ولكن

(١) مؤسس الدولة الأخشيدي .

(٢) كورتيكين الديلى . (المرب)

لم يمض سوى قليل حتى نشبت فتنة أخرى على رأسها « توزون » التركي ، انتهت بطرد الأخوين من بغداد ووقوع الخليفة في قبضة القائد الناصر ؛ ويظهر أن « المتقى » كان قد أوجس خيفة منه ففر إلى الرقة ، غير أن توزون أقنعه بالعودة ووعدته ألا يغدر به ، ولكنه لم يلبث بعد أن اطمأن إليه الخليفة وعاد معه إلى بغداد أن حنث في وعده معه وسمل عينيه وخلعه من الخلافة . ويقال إن في عهده غزا الروم بلاد المسلمين وأعملوا السيف في رقاب السكان فلم تسلم مدينة (الرها) إلا بتسليم مسوحة المسيح المشهورة التي كانت محفوظة في كنيسة تلك المدينة . وبعد ما خلع المتقى جىء بأخيه أبى القاسم عبد الله فبايعه « توزون » وسائر القواد ولقب « بالمستكفى بالله » . ولكن توزون مات بعد ذلك بقليل ، فقلد الخليفة منصب إمارة الأمراء إلى سكرتيه « ابن شيرزاد » . وفي ذلك الحين زحف أمراء الديلم أبناء بويه على العراق للاستيلاء على بغداد ، ولأجل أن ينال المستكفى تعضيدهم ويتقوى شرهم لقب أحمد « بمعز الدولة » ، وعليه « بمعاد الدولة » والحسن « بركن الدولة » . وتقول لنا الرواية إن معز الدولة^(١) لم يلبث أن استولى على بغداد واضطر الخليفة إلى أن يقلده السلطنة كما نقش اسمه على العملة وذكر اسمه مقروناً باسمه في خطبة الجمعة ؛ وكان موقفه من الخليفة كوقوف تشارل مارتيل من ملوك فرنسا ، إذ كان هو الحاكم الحقيقي في حين كان الخليفة لا حول له ولا قوة ، مجرداً من كل سلطة ، وليس له من الشؤون غير قبض المخصصات اليومية وقدرها خمسة آلاف دينار من خزانة الدولة . وكان « معز الدولة » محباً للعلوم والفنون مكرماً للعلماء ، إلا أنه كان قاسى القلب ، متشيعاً ، وهو الذى جعل اليوم العاشر من محرم يوم حزن لذكرى موقعة كربلاء

٢٣٢-٤٥٤هـ

أبو القاسم عبد الله
المستكفى بالله
صفر ٣٣٣هـ
تشرين الأول
٩٤٤م آل بويه

٩٥٢ ٣٤١م

(١) ذكر أبو الفرج بن الجوزى في كتاب شذور العقود : إن معز الدولة المذكور كان في أول أمره يحمل الخطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد وآل أمرهم إلى ما آل ، ولما حضره الموت أعتق مماليكه وتصدق بأكثر ماله ورد كثيراً من المظالم . (المعرب)

وفي عهده شرعت جيوش الروم تغير على البلاد الإسلامية عندما آنتست من الخلافة عجزاً وخوراً .

أبو القاسم الفضل
المطيع لله
٩٤٦م ٩٤٦
— ٨٤٧
١٠٦٣

ويقال إن « معز الدولة » أوجس خيفة من « المستكفي » واتهمه بالتآمر عليه فخامه وسمل عينيه في كانون الثاني سنة ٩٤٦ ، ثم بايع أبا القاسم الفضل بن المقتدر الملقب « بالمطيع لله » . وظل البويهيون في الحكم زهاء قرن دون أن يظهر لهم أى منافس ينافسهم النفوذ والسلطان ، فقويت بذلك شوكتهم وتغلبوا على العناصر العسكرية التركية ، كما أجلوا الحمدانيين عن ملكهم في الموصل حتى أصبحت بلاد الجزيرة والعراق العربى وغربى فارس تدين لهم بالطاعة . ومع أن بعض أفراد هذه الأسرة كان قاسى القلب ، شديد الوطأة ، إلا أن العلوم والآداب زهت في عهدهم وسعد الأهالى في كنفهم .

أبو بكر
عبد الكريم
الطائع لله
١٣ ذو القعدة
٩٣٦م (٥ آب
٩٧٤م)

وفي عام ٣٥٦ هـ توفى « معز الدولة » وخلفه في منصب إمارة الأمراء ولده « باختيار » الملقب « بمعز الدولة » . وبعد سبع سنين أصيب الخليفة المطيع بالشلل فتنازل لابنه أبى بكر عبد الكريم عن الخلافة ، ولقب « بالطائع لله » . وليس أدل على كرم الأمراء الحمدانيين والبويهيين واهتمامهم بالعلوم والآداب من تألق نجم طائفة من مشاهير الرجال في أيامهم أمثال المسعودى المؤرخ المعروف والفيلسوف « أبى نصر الفارابى » ، والشاعر الفذ « أبى الطيب المتنبى » ، و « أبى الفرج الأصبهاني » صاحب كتاب الأغاني ، و « أبى القاسم التنوخى » ، و « الدينورى » ، وكثير من الفلاسفة والعلماء والشعراء والقضاة الذين ذاعت شهرتهم خلال عهد الطائع لله .

٩٧٤م ٩٣٦

وقد حدث في خلافة « الطائع » أن استولى الخليفة الفاطمى الملقب « بالمعز لدين الله » على الشام والحجاز ، وجعل الخطبة تقرأ باسمه في الحرمين . ولما خلع عضد الدولة ابن أخيه عز الدولة أقره الخليفة في مكان أخيه ومنحه لقباً دينياً فوق لقبه الزمنى وسماه « تاج الملة » . وفي سنة ٣٧٢ هـ توفى عضد الدولة وخلفه ابنه

١٠٤٠م ٩٣٢

٢٨٢٣٧٢ م « صمصام الدولة » الذى لقب « بشمس الملة » ، غير أن أخاه شرف الدولة عزله
٢٨٨٥٣٧٦ م وتولى الحكم مكانه قرابة أربع سنوات^(١) . ولما توفى عام ٣٧٩ هـ خلفه ابنه
٢٨٨٩٣٧٩ م أبو ناصر الملقب « بهاء الدولة » و « ضياء الملة » . وقد شجع كل من عز الدولة
وشرف الدولة الروح الأدبية فى البلاد ، وطفقا يعضدان مدرسة بغداد التى كان
قد اضمحل شأنها فى أثناء تدهور الخلافة ؛ وكان من جملة العلماء الذين نالوا
التشجيع منهما ابن سلام ، وعبد الرحمن الصوفى ، وأبو الوفاء الفلكى المشهور .
كذلك يقال إن عز الدولة علاوة على تكريمه الشعراء والعلماء قام بأعمال باهرة
أفادت البلاد فائدة تذكر ، وذلك أنه أمر المهندسين الأكفاء بكرى جداول
نهر (باندмир^(٢)) وتهيئته للملاحة حتى مدينة شيراز ، فأزال بذلك خطر الفيضان
الدورى الذى كان يغمر المناطق المجاورة ، كما شيد أيضاً مستشفى نفما وفتح عدة
كليات فى بغداد .

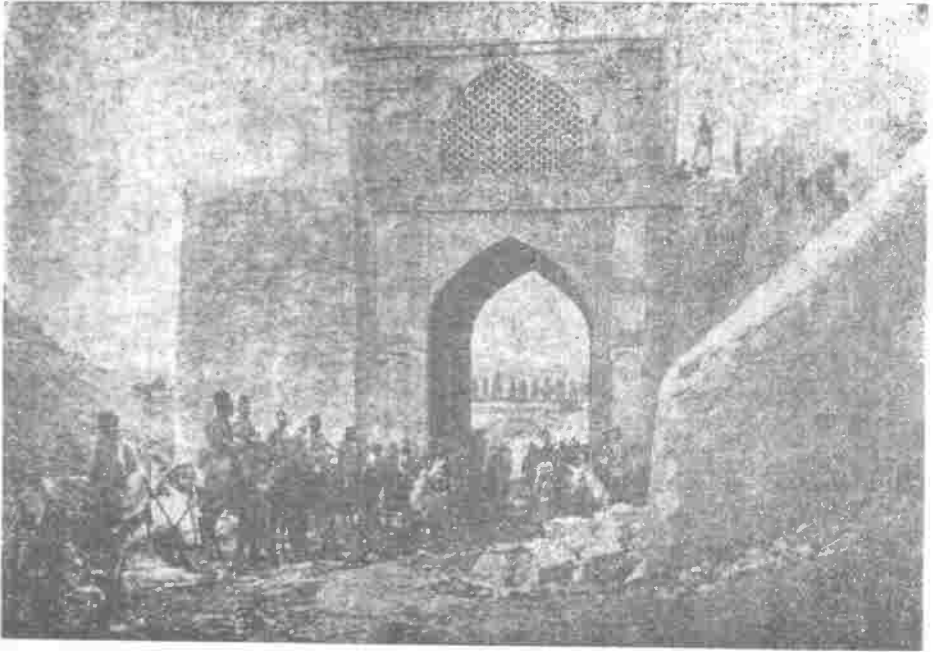
أكره « بهاء الدولة » الخليفة « الطائع لله » على التنازل لأخيه « أبى
العباس أحمد » الذى بعد أن بويع بالخلافة ولقب « بالقادر بالله » سمح لأخيه
بالسكنى فى قصره ، ويلوح أنه عامله معاملة مرضية ، لم تكن مألوفة فى ذلك العصر .
وقد توفى (الطائع لله) عام ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م) ؛ وكان حسب ما يصفه المؤرخون
فاضلاً ورعاً ، سديد الرأى ، يقضى معظم ساعات الليل فى التهجد والصلاة ،
ويعصرف معظم رواتبه على أعمال البر والإحسان ، ولكننا لا نستطيع برغم ذلك
أن نتجاهل شدة تعصبه وضيق أفق تفكيره ؛ ولعل ظروف عصره هى التى دفعته
إلى اتخاذ خطة رجعية شديدة إزاء كل حركة إصلاحية . وقد كان الفاطميون
فى تلك الأثناء ينشرون سلطانهم على كل الجهات ، فاستولى العزيز خليفة المعز على
حمص وحماة وحلب ، واعترف أهل الجزيرة بسلطانهم ودانوا لهم بالطاعة والولاء
وفضلاً عن ذلك كان مبدأ الاعتزال ينتشر بسرعة ويمجد له الكثير من الأنصار

أبو العباس
أحمد القادر بالله
١٩ شعبان
٣٨١ هـ
١ تشرين الثانى
٢٩٩١

— ٨٤٧
٢١٠٦٣

(١) أقنع شرف الدولة الخليفة بمنحه لقب شاهنشاه (ملك الملوك) .

(٢) بالقرب من شيراز .



في طريق شيراز

والأتباع . ولما كان القادر مثقفاً في الشرع ملماً بأصول الدين ، مجرداً عن السلطة الزمنية والجاه والنفوذ ، فقد انصرف بكليته إلى تدعيم سلطان الخلافة العباسية ورفع سمعتها ، فكان الفقهاء يعقدون الاجتماعات برئاسته بصفة كونه الزعيم الديني ويصدرون فتاويهم بتكفير الفاطميين ولعنهم وذم حرية الفكر وتحريمها ، كذلك وضع بعض التصانيف يهاجم فيها آراء المعتزلة ويكفر من يعتنقها ، فنجم عن هذه الفتاوى خلق روح البغضاء والعداء بين الطوائف وصبغ المعتقدات بصبغة الجود .

وفي سنة ٨٧٤ أفل نجم الدولة السامانية التي حكمت بلاد ما وراء النهر
الفرزيون ٩٩٩
وخراسان واشتهرت بحسن سياستها ، وحلت محلها أميرة أخرى بقيت في الحكم
حتى سنة ٩٩٩ م . ومؤسس هذه الأسرة جندي تركي يدعى (البتكين) ، بدأ
حياته العسكرية كأحد الغلمان فلم يلبث أن نال مركزاً سامياً عند مولاه ؛ غير أنه
لسبب ما جلب سخط سيده عليه فقر إلى بخاري ونزل في إحدى المناطق الجبلية
٢٣٢-١٥٤

في أفغانستان ، وهناك اتخذ (غزنة) مركزاً لحركته واعتصم بها ست عشرة سنة تحدى فيها سائر التداير التي بذلت لإخضاعه ؛ وبموته سنة ٩٩٥ هـ أفضى الأمر إلى صهره « سبكتكين » الذي استطاع بحسن سياسته وبعد همته اكتساب محبة الشعب واحترام أمراء الولايات المجاورة ؛ ولم يلبث الخليفة أن اعترف بحكومته ، فاصطبغ حكمه — بهذا الاعتراف — بالصيغة الشرعية وتحققت أمنية طالما اعتلجت في صدره ، فتلقب « بناصر الدولة » ، وبعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدي ، وأصبح « سبكتكين » مؤسس الدولة الغزنوية الشرعية . وفي تلك الأثناء حشد حملة عظيمة وزحف بها على الهند حتى وصل إلى كوش ثم البنجاب واستولى على مدينتي بوست وقصدار ، كذلك كانت قبائل التركان قد اجتاحت بلاد ما وراء النهر ، فسار « سبكتكين » إلى نجدة حليفه « نوح الساماني » .

ولما توفى سبكتكين نشب خلاف بين ولديه محمود وإسماعيل حول من يتولى الحكم من بعده ، وكان الأول يرغب في اقتسام البلاد مع أخيه الذي أبى إلا أن يحكمها بمفرده ، فنشب قتال بين الأخوين انتصر فيه « محمود » ولكنه برغم ذلك عامل أخاه إسماعيل معاملة مرضية ، وعندئذ انفرط عقد الدولة السامانية . وفي عام ألف استولى ملك غزنة على خراسان ، ولم يلبث الخليفة أن أرسل له العقد والخلع ولقبه « بيمين الدولة » و « أمين الملة » . وكان عهد السلطان محمود من أمتع العهود في آسيا ، فقد جهل غزنة ويحق له أن يقول كما قال الإمبراطور الأول في روما : « إني وجدت عاصمة ملكي مجموعة مبعثرة من الأكواخ الحقيرة إلا أنني تركتها مدينة عاصرة مزينة بالقصور المنيفة الذرى » . وكان له شغف خاص بنشر العلوم والفنون ؛ وبالرغم مما كان يعوق سخاءه أحياناً من ضيق أفق الفكر والشح ، فقد كان بلاطه ملجأ يؤمه العلماء والأدباء ، وفي عهده تألق نجم طائفة كبيرة من الفلاسفة

السلطان محمود

— ٨٤٧
١٠٦٣ م

والشعراء أمثال البيروني والفردوسي والدقيقي ، كما غزا بلاد الهند عدة مرات ، ولكنه لم يملك طويلاً فيما وراء حدود البنجاب . وفيما كان محمود منصرفاً إلى بسط سلطانه في جهة الشرق عبرت قوة كبيرة من التركمان نهر سيحون آتية من الخركيز ، فنزلت في بلاد ما وراء النهر ؛ ولكن سلطان الدولة الغزنوية خطأ فاحشاً بترك تلك القبائل تسكن في بلاده ، مقتنعاً منها بالجزية السنوية والاعتراف له بالطاعة ، ولكنه لكي يضيف شوكتها — حسب اعتقاده — أقصى طائفة منها مع زعيمهم « سلجوق » إلى خراسان حيث ازدادوا قوة ومنعة وتمكنوا فيما بعد من الخروج على أسيادهم السابقين . وفي عام ١٠٣٠ توفى السلطان مسعود الذي حاول إقصاء تلك القبيلة التي استوطنت في قلب مملكته من جراء السياسة الخاطئة التي سلكها أبوه ، ف وقعت معركة حامية بين الفريقين بمقربة من « هراة » دارت فيها الدائرة على مسعود ، فانهارت دولته ، ونأست على أنقاضها الدولة السلجوقية ؛ وعندئذ اقتصر نفوذ السلطان مسعود على الأفغان وشرقي البنجاب وقد اعتلى العرش بالتعاقب بعد وفاته عدة أمراء لم يملك أحد منهم في الحكم غير مدة قصيرة ، وظلت شؤون هاته الإمارة تضطرب أحياناً وتهتدأ أخرى ، حتى استخلصها منهم السلطان إبراهيم صديق الشاعر الفيلسوف الحكيم « سنائي » ، وعقد الصلح مع أمير خراسان السلجوقي ، ثم صرف جهوده إلى تدعيم سلطانه في الهند .

السلطان مسعود

الدولة السلجوقية

— ٢٣٢
٨٤٥٤ م

وعلى أثر هزيمة السلطان « مسعود » انتخب السلاجقة « طغرل بك » حفيد زعيمهم المشهور الذي عرفت القبيلة باسمه ، وكان ملكاً حكيماً ، متسامحاً كريماً ، فاضلاً محباً للعلم ، فلم تلبث أن أذعن له جرجان والعراق العجمي وخوارزم ، وبعض الولايات الأخرى المهمة في المغرب ، وتمكن في الوقت نفسه من إقصاء طغرل بك

أمراء بني بويه عن ملكهم في شمالي فارس . ومن مآثره أنه كان كلما استولى على مدينة شيد فيها مسجداً ومدرسة تخليداً لذكري انتصاراته الباهرة ، فشاع اسمه وذاع فضله ، حتى كانت تسبقه شهرته أنى ارتحل مما سهل له الفوز والانتصار على أعدائه . وفيما كان يبسط سلطانه على دولة آل بويه في فارس كان الخليفة الكهل « القادر بالله » يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وتوفي عام ٤٢٢ هـ وله من العمر ٨٧ سنة بعد أن مكث في الخلافة ٤١ سنة . وقد تألق في عهده أنجم عدة من العلماء الأفذاذ الذين تركوا آثاراً خالدة في التاريخ الإسلامى أمثال القاضى عبد الجبار العالم المعتزلى ، وخضمه « أبى إسحق الأشعرى » ، والعلامة « الشيخ المفيد » أكبر مجتهدى الشيعة ، والشاعر « أبى عمر بن الدراج » ، والقاضى « ابن شاهين » وكثير غيرهم .

١١ ذو الحجة
٤٢٢ هـ
٢٩ تشرين
الثانى ١٠٣١ م

أبو جعفر عبدالله
القائم بأمر الله

السلطان طغرل بك

وقد بويع من بعده ابنه « أبو جعفر عبد الله » الملقب بالقائم بأمر الله ، وكان فاضلاً تقياً ورعاً عالماً متديناً كريماً ، يشجع العلم ويكرم العلماء ، وكانت له مهارة في فن الكتابة وشغف عظيم بعمل الخير وإقامة العدل ، ويظهر أنه بقى ٢٤ سنة في الخلافة التى انحل أمرها ، وضعف شأنها في عهد آل بويه . وفى عام ٤٦٦ هـ وفد القائد التركى « أرسلان البساسيرى » على بغداد وأزاح الملك الرحيم البويهى عن ملكه ، واستولى بنفسه على السلطة العليا ، وفى تلك الأثناء استنجد « القائم » بالملك السلجوقى الذى ما كاد يصل إلى بغداد حتى فر البساسيرى إلى الموصل . وتقول لنا الرواية إن البساسيرى عند ما سمع أن طغرل بك قد غادر بغداد لقمع الثورة التى نشبت فى فارس عاد إلى العاصمة وخلع الخليفة العباسى ، وبايع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وأرسل البردة والقضيب والمنبر إلى مصر ، وخطب له على منابر بغداد ، فلم يلبث طغرل بك أن عاد إلى بغداد وقاتل البساسيرى حتى فتك به ، وأجلس « القائم بأمر الله » ثانية على عرش أجداده ، وعندئذ أقام

الخليفة حفلة رائعة في بغداد توج فيها طغرل بك^(١) بتاجين يرمزان إلى السلطة على العرب والعجم ، وخلع عليه سبع حلال رمزاً للممالك الإسلامية السبع ، ثم اعترف الأمراء له بالسلطة على المشرق والمغرب ، ولم يبق للخلافة العباسية في أيامه غير السلطة الروحية فحسب .

(١) يقول ابن الأثير : « إن السلطان طغرل بك بن ميكائيل السلجوقي لما تقلد السلطنة عن « انقائم بأمر الله » في سنة تسع وأربعين وأربعمائة جلس له الخليفة على كرسي ارتفاعه عن الأرض نحو سبعة أذرع وعليه البردة ، ودخل طغرل بك في جماعة ، وأعيان بغداد حاضرون ، وقبل طغرل بك الأرض وبد الخليفة ثم جلس على كرسي نصب له وخلع عليه سبع جبات سود بزريق واحد وعمامة سوداء ، وطلوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وأعطى سيفاً بخلاف من ذهب » . (المغرب)